

في الطريق إلى قرطبة

مجموعة قصصية

محمود تيمور

اسم الكتاب: في الطريق إلى قرطبة

اسم المؤلف: محمود تيمور

الترقيم الدولي: 978-977-6666-37-5



جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة
لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821
بتاريخ 2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية /
محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق
استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة
قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية،
والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة
بالمؤلف فقط لا غير.

الشيخ عفا الله

حدثني صديقي، قال:

منذ عشرين عاماً كنت أسكن جهة درب سعادة. ذلك الحي القديم ذو الشارع الضيق والمباني المتراحمة الأثرية. وكنت إذ ذاك في التاسعة عشرة من عمري أحضر لامتحان الشهادة الثانوية. وفي أوقات فراغي كنت أجلس أمام البوابة أتفرج على الرائح والغادي. وكان يمر أمام الدار (من وقت لآخر) شيخ بملابس بسيطة ضامر الوجه، بلحية خفيفة فيها آثار الشيب ظاهرة. هادئ المشية. يسير في وقار. منكس الرأس على صفارته يناجيها بألحان شجية. فكنت استوقفه وأطلب منه أن يسمعي شيئاً من أنغامه. وكانت جميع ألحانه تحوي كثيراً من معاني اليأس والحنو. ولاحظت أنه قنوع يرضى بالقليل. وكان إذا استرسل في صفيره خيل لك أن الصفارة تتكلم وتنوح كأنها تحاول أن تفشي سرّاً! وهو على طهارة قلبه ومظاهر الصلاح الناطقة على وجهه، لا يؤدي أي فرض من فروض الصلاة، ولا يذهب إلى الجامع مطلقاً! ولا يتكلم عن شيء اسمه مغفرة ورحمة. وإذا ذكر اسم الله أمامه طأطأ رأسه ذليلاً، وتمتم بألفاظ متقطعة غير مسموعة!

وتوثقت بيني وبين الشيخ ألفة ساذجة. وحاولت أن استوضحه حقيقة آلامه فلم يرض أن يبوح لي بشيء. فاحترمت رغبته وصممت ألا أفاتحه في هذا الموضوع. وظل الرجل وقتاً ما لغزاً لا أستطيع الوصول إلى حله. ومرت الأيام والشيخ يزورنا مرة في الأسبوع فأحظي منه بألحان شجية، وحديث هادئ جميل! وكان يسترسل في الكلام بعض الأحيان فتقلت منه من غير وعي جمل وكلمات بدأت تكشف لي شيئاً

من سره. وكان ينشد لي كثيراً من المواويل الريفية في الحب والتشبيب بالنساء وكان إذا لفظ كلمة (الغيط) لفظها مفخمة منغمة واتسعت عيناه ولمعت بوميض غريب. واتسع صدره وتمددت طاقتا أنفه وهو يستنشق في شغف الهواء الذي يحسبه هواء الريف. ثم يعقب ذلك تنهد حار عميق، ومناجاة طويلة لصفارتة وباغته ذات يوم بقولي:

- أقسم بالله لقد اكتشفت سرّك يا شيخ (عفا الله)!

فارتعد مذعوراً. وأتممت كلامي:

- إنك فلاح من الريف

فنظر ألي بحيرة وقال بعد تردد:

- وهل أستطيع أن أنكر (أصلي)!

- وإنك تتألم من حب دفين.

فأمسك ببدي وشد عليها، وقال:

- اسكت يا سيدي، اسكت:

- وإنك ارتكبت معصية كبرى، وتريد التكفير عنها

فامتقع وجهه ونظر إلي محملاً، وقال:

- أعالم سري...؟ أعالم سري؟

وأخذت استدرجه في القول حتى لان. وبدأ يروي لي قصته كالآتي:

لم أكن أدعى بالشيخ (عفا الله) فيما مضى، بل كنت اعرف (بسرхан) وهو اسمي الحقيقي، وكان لي أخ يدعى (محمد الرخ) كان إماماً لمسجد القرية التي نشأت فيها. وكان قد تجاوز الأربعين، بينما كنت في السابعة عشر. أو كنت اعتبره كأبي وأحبه حبا عظيماً وكان هو الآخر يحبني كابن

له: وقد حفظني القرآن وعلمني أصول الدين وأشركني معه في خدمة المسجد. وكنت قد بدأت أتعلم الصفيير في ذلك العهد على شيخ طريقة مجذوب يجيد التوقيع على الصفارة وإنشاد القصائد الصوفية. ولما برعت في الصفيير كان يلتف حولي على باب الجامع. بعد العشاء. جمع كبير من الفلاحين يستمعون إليّ.

وكانت زوجة أخي قد توفيت منذ عام، فتزوج بفتاة في الخامسة عشر لم تقع عيني على املح منها. لها جاذبية غريبة سحرتني وخيلت عقلي. رأيته للمرة الأولى فلم أتمالك أن أحببتها حبا تملك على جميع مشاعري وكبلني بالرغم مني بقيود ظالمة لم أستطع التخلص منها. وخجلت من نفسي ومن أخي واعتبرت هذا الحب الشائن أكبر خيانة لذلك الشخص الذي وهبني حنانه وإخلاصه وثقته، وأردت أن أحطم هذه العاطفة الذميمة، ولكني لم أستطع فكتمتها في قلبي ولم أبح بها الا لصفارتي! فقد كانت عزائي الوحيد في نكبتي.

وكننت أتعمد ألا أخلو بزوجة أخي أتحاشى أن أكلمها إلا في الأمر الضروري. وكننت امكث بعيدا عن الدار في فحمة الليل، أناجي حبي بالحن الشكاية والنوح. وحدث مرة أن كننت في موضع خلوتي غير بعيد عن الدار، اصفر في شبه غيبوبة، وأنا ملتذ بالآمي إذ شعرت بإحساس غريب فرفعت رأسي. والنقت حولي فوجدت (هنية) زوجة أخي جالسة غير بعيدة عني تنظر ألي في صمت وخشوع. فذعرت وقمت من فوري وأنا أقول:

-أنت هنا؟

-منذ برهة وجيزة. . . إني أحب صفييرك وأشعر عند سماعه برغبة في البكاء.

وتحركت أريد الهرب، فأمسكت بطرف جلبابي
وقالت:

-لماذا لا تريد أن تجلس؟

فصرخت بالرغم مني قائلاً:

-دعيني!

فنظرت إليّ دهشة ولم تتكلم. ثم قالت:

-ما الذي يدعوك إلى كرهني. لماذا تهرب مني..

وبغثة أجهشت بالبكاء. فشعرت كأن قلبي يتمزق وأن
دماغي يحترق. ثم هبطت عليها دفعة واحدة، وأخذتها بين
ذراعي، وأنا أقول:

-أنا أكرهك يا هنية!

وانحنيت عليها أشبعها ضماً وتقبيلاً معبراً عن حبي
الكبير بأحر العبارات.. وكانت الفتاة مستسلمة إليّ في نشوة
وغرام!

وبينما نحن على هذا الحال إذ طرق سمعنا أصوات
من بعيد فصحونا من حلمنا اللذيذ. ورأينا على جسر التربة
أشباحاً تسير متمهلة. فاضطربت هنية وهمست في أذني قائلة:

هذا أخوك عائد مع المستأجرين.

ثم قامت دفعة واحدة وقالت:

-سوف أسبقه إلى الدار، متخذة طريق الغيط.

وقامت تعدو كالطبي المذعور، وأنا أراقبها في لهفة
حتى ابتلع الظلام شبحها الجميل! وسرت أنا إلى الدار متمهلاً

في طريق الجسر فوجدت أخي قد جلس أمام الطعام منتظراً حضورى، ولما رآنى صاح بي مداعباً:

أصبح أن تتركنا ننتظرك. تعال يا ملعون وشاركنا الطعام! أريد أن أقص عليك كيف أجرت الفدادين هذا العام بقيمة لم أكن أحلم بها.

وجاءت (هنية) ووضعت العيش أمامنا. وجلست مبتعدة قليلاً عنا. وبدأنا نأكل. وكنت منهما في تفكيرى، لا أفهم شيئاً مما يرويه لي أخى، مع تظاهري بالإصغاء إليه. وكنت أرفع بصري بين وقت وآخر نحو (هنية) فأجدها مسبلة الأجناف في شبه دھول تأكل بحركات ميكانيكية، ووجهها ممتقع. وحدث مرة أن رفعت نظرها إليّ واشتبكت عينانا. وخيل لي أن وجهي يدنو من وجهها، وأن شففتينا على وشك التلاقي. وبغطة سمعت صرخة اهتزت لها الدار فارتعت، وتنهت لنفسى فرأيت (هنية) تشهق بالبكاء قائلة:

لا أستطيع! لا أستطيع!

وهب أخى فزعا نحوها. وضمها إلى صدره وهو يقول:

-ما لك يا هنية؟ ما لك؟

ليس لي رغبة في الأكل. داخلة. أريد أن أنام.

-قومي يا حبيبتي لتستريحى.

وقامت متجهة نحو حجرتها، وهي معتمدة على ذراع أخى. وكنت شاهد هذا المنظر وأنا في شبه خبل. أشعر بأنى قد تحجرت وصرت جزءاً من الأرض التي كنت أنا جالس عليها.

وعاد أخى بعد هنيهة، وقال لي:

-المسكينة أجهدت نفسها اليوم في أعمال الدار.

وكننت لا أطيق أن أنظر إلى أخي في هذه اللحظة
فقممت من فوري ووجهتي الباب. وسألني أخي؛
-إلى أين؟

-إلى الجامع. أريد أن أصلي العشاء. ثم أقفله أعود.

وخرجت أعدو إلى مأواي المختار (الذي قابلت فيه
(هنية) منذ وقت قريب) وارتميت على الأرض أمرغ وجهي
في الموضع الذي كانت جالسة فيه، وأنا أنشط نشيجا حارا
وأمضيت ليلتي هناك، وأنا لا يهنا لي مضجع. أبكي وأغفو
وأحلم، ثم أصحو برجفة تزلزل جسمي، وكان يترأى لي شبح
أخي في يقظتي ونومي. يحوم حولي يريد أن يقتلني، فكننت
العنه بأشنع اللعنات. وفي الفجر غلبني نعاس عميق، لم أصحو
منه الا عند الظهر. وفتحت عيني وأردت النهوض فخاننتني
قواي، إذ كنت أشعر بالآلام شديدة وضعف هائل.

فجلست مستندا إلى جذع شجرة خلفي وأخذت استعيد
قواي شيئا فشيئا. وكان الغم يخيم على قلبي، وشعور الندم
الشديد يكتسح نفسي. فقممت مهرولا نحو الجامع، واعتذرت
لأخي عن تأخيرتي بمختلف الأعذار ثم هبطت على يده اقبلها،
وأنا أقول له:

أني أحبك يا أخي! واقسم بالله أنني أحبك حبا لم يضمره
ابن لأبيه. أريد دائما أن أنال رضاك وعفوك. قل لي أتحبني!
فأجابني:

-ما هذا الكلام يا سرحان. هل رأيت مني غير الحب
الكبير؟ أنت ابني بل أنت أفضل من ابني:

ونظرت إلى أخي فوجدت آيات الإخلاص مرتسمة على وجهه. فاندفعت أقبل يديه من جديد؛ وأنا ابكي بصوت عال. وانتابتي نوبة عصبية شديدة، فارتيمت على الأرض في حالة تشبه الصرع. ولما أفقت وجدت نفسي ممددا في ركن من أركان الجامع وأخي بجانبني مهموم الخاطر من أجلي؛ يمرضني ويحنو عليّ.

ومضى أسبوع وأنا لا أقصد الدار الا في أوقات قليلة. وكثيرا ما كنت أتناول الطعام في الجامع، وأنام ليلا فيه، ولو استطعت لامتنتعت تماما عن الذهاب إلى المنزل. ولكني كنت احتاط للأمر حتى لا يشك أخي في سلوكي. وكنت أجاهد ما أمكن في سبيل ضبط عواطفني وأكلم (هنية) أمام أخي كلما عاديا متحاشيا دائما النظر إليها. وإذا تصادف وخلصنا نحن الاثنان برهة صغيرة ظللنا صامتين منكسي الرأس وإذا تقابلت الأعين اهتزت منا الأجسام كأن مستها الكهرباء.

ومضت الأيام والنار تأكلني أكلا، أنام نوماً سيئاً، وأقضي يقظتي في شبه أحلام مشوشة. وإذا أدت صلاتي أخطأت الأداء وكان قلبي مسرحا لمختلف الاحساسات المتباينة، الغضب والرحمة، والكفران، والتوبة والحب والبغض تتطاحن كلها باختلاط.

وتركت الدار (يوماً) بعد منتصف الليل بقليل وخرجت أعدو كالوحش المطعون وأنا أردد:

-أنه معها في الحجرة. إنها له.. وهو يتمتع بها.. .

وهمت على وجهي لا أدري أي وجهة أقصد. وأخيرا وجدت نفسي أمام الجامع فدخلته بدون وعي وارتيمت على الأرض أعض يدي واضرب رأسي في الحائط، وأنا ما زلت أردد قلبي: انه معها في الحجرة.. إنها له. وهو يتمتع بها.. .

وبينما كنت على هذه الحالة، شعرت بيد وضعت على كتفي. فالتفت مذعوراً. فإذا (هي) أمامي.. هي (هنية) في تلك الساعة الموحشة من الليل، وفي ذلك المكان المنعزل. فأخذتها بين ذراعي بلا كلام واحتضنتها بوحشية وأنا أهذي.

وأضيت معها ساعة غرام عنيفة، من أشهى ساعات الوجود. وأقسم لك انه ليس على وجه الأرض منذ خلقت الدنيا شخص نال مثلي نعيم تلك الساعة. إنها ساعة تساوي أعماراً بأكملها.

وبعد ذلك نمنا متعانقين. . . وتنبهت فإذا الباب يقرع. وإذا ضوء الشمس يغمر المكان، وسمعت صوت أخي يقول:

-افتح يا سرحان

فوجدتني أجيب بلا وعي:

-سأفتح في الحال

وكان للجامع نافذتان مشبكتان بالحديد. وليس ثمة مخبأ تستطيع أن تختبئ فيه هنية أو منفذ تنفذ منه إلى الخارج. فأختبل عقلي. ولكن خاطراً مر برأسي فقلت لها هامساً!

-أصعدي إلى السطح. أصعدي سريعاً

فقامت هنية وصعدت في الحال إلى السطح؛ وقمت أنا إلى الباب ففتحته. وتظاهرت بالفتور الشديد ودخل أخي وعليه شيء من مظاهر الغضب. وقال:

-أما زلت تنام في المسجد يا سرحان؟ اليس لنا دار

تسعك معنا؟

-يحلو لي الآن أن أتعبد في المسجد حتى مطلع الفجر!

وجلس أخي صامتاً. وبعد برهة تكلم بلهجة قلقة.

- لقد استيقظت من النوم؛ فلم أجد هنية بجانبى. وقد بحثت عنها طويلاً في الدار فلم اعثر عليها..

فارتجفت. ولكنني تغلبت على ضعفي وقلت:

-لعلها تكون قد خرجت لتملاً جرتها من التربة

-ربما. إنما... .

ثم ابتلع ريقه وتمتم بكلمات لم أفهمها وقام وقال:

-هيا نصل الصبح!

وقمنا إلى الصلاة. ولكن أي صلاة هذه التي أديتها في ذلك الوقت. كانت صلاة للشيطان لا لله! وانتهت الصلاة. وبدأ الناس يفدون على الجامع وأصبحت في حالة يرثى لها. وأخيراً خرج أخي عائداً إلى الدار. وما كاد يفعل حتى انسلت صاعداً إلى سطح الجامع لأدبر حيلة لهرب هنية. وما كانت أشد دهشتي حينما رأيت السطح خالياً. ودرت فيه وأنا كالمخبول، ابحت هنا وهناك. وشعرت بإحساس غريب يجذبني نحو حافة السطح. وما كدت أشرف منه إلى الأرض حتى صرخت مرتاعاً. ووجدت نفسي بعد لحظة على الأرض ولا أدري كيف نزلت. وكانت هنية ملقاة بجوار الجدار تنن أنينا خافتاً فدنوت منها وأنا في جزع ولهفة وأمسكت بها وسألتها عما أصابها ففتحت عينيها بصعوبة وقالت:

-لقد انكسرت يا سرحان. انكسرت!

وكانت تعض على شفتيها محاولة كتم تأوهاتها!

فاحتضنتها وأنا أواسيها وأشجعها. وسمعتها تقول:

-آلامي لا تطاق. أني أموت!

وحملتها بكل عناية واحتراس. وأنا أكاد اجن من الحزن، وذهبت بها إلى دار أم عبد الجليل. وكانت امرأة وفيه ولي محبة. وأخبرتني بشيء من الحقيقة ورجوتها أن تذهب إلى أخي لتبلغه خبراً ملفقاً. فقامت المرأة من فورها إلى داره.

ونقلوا هنية إلى دارنا وقد أشاعت أم عبد الجليل أنها سقطت من سطح منزلها بينما كانت تأتي بوقود لها!

ومضى يومان وهنية تعيش في أتون متقد من الآم لا يتصورها العقل. أما أنا فكنت أذهب إلى زريبة المواشي، وأحكم أقفالها عليّ. ثم انهال على وجهي باللطم. وأنفجر في نواح طويل وأنا أقول:

-أنا سبب كل هذا! أنا الذي يجب أن يعذب! أنا الذي يجب أن يموت!

وماتت هنية في اليوم التالي ودفناها في قرافة القرية باحتفال بسيط. أما حالتي يوم وفاتها فقد عتراني خبل غريب، فلم أصدق أنها ماتت. وكنت أؤدي عملي الذي كلفت به في مأتمها ببساطة وهدوء، بل كان يعتريني بعض الأحيان نوبات ضحك يعقبها خمول ووجوم. ولكن بعد أيام بدأت أشعر برد فعل شديد، فأخذت أهيم في الغيطان؛ وأختبئ في الذرة، وأنا ابكي وأندب بلا انقطاع. وأخيراً هدأت حالتي نوعاً فعدت إلى عملي في الجامع. ولكن مرآي ذلك الجامع كان يزيد شجوني وعذابي. فتتمثل أمامي جريمتي كلما وطئت عتبة ويخيل لي أنني أسمع صوت سقوط جسم من أعلى السطح إلى الأرض. فتعتريني قشعريرة وأخبئ وجهي في يدي وأجهش بالبكاء.

لقد عملت المستحيل لكي أضلل أخي؛ وأبعد شكه من ناحيتي وتحملت أكبر العذاب في سبيل إخفاء جرمي. ولم أكن

أجسر على النظر إليه. وكان يخيل إلي أنه يرفع يده في وجهي يريد سحقي.

ومضت الأيام وسري ينمو ويتضخم في قلبي فأشعر بثقله الهائل. ويخيل ألي في كل وقت إن قلبي يتمزق وإن السر يطير منه ويعلن إلى الملاء فضيحتي. وكانت أيام عذاب لا أظن عذاب الجحيم يفوقها.

وفي ليلة عقب صلاة المغرب خرجت لأروح عن نفسي قليلاً فقادتنني قدماي، بدون شعور، إلى المكان الذي سقطت فيه هنية بجوار حائط الجامع. وبغطة قابلت أخي وجها لوجه ولا أدري ما لذي أرسله إلي في هذه الساعة وفي هذا المكان. أهي المصادفة أم شيء آخر. لا أدري! ووقفنا أمام بعضنا بالقرب من ذلك الجدار الرهيب. وشمطنا الصمت برهة. وبغطة وجدت نفسي أصرخ وأقول:

-لا تقربني! لا تقربني!

واندفعت أجري كالمجنون أهييم على وجهي. وكان هذا آخر عهدي بأخي وبذلك الديار! وأخذت منذ ذلك الوقت أطوف المدن، وأعيش عيشة الطريد الشريد.

ثم أطرق الشيخ عفا الله صامتا. وشاهدت دمعة تتحدر في بطأ على خده. فقلت وأن - لماذا لا تعود إلى صلاحك، وتطلب مغفرة الله.

فرفع عينيه وقال:

-لقد تألّبت عليّ الأقدار. وسأظل حتى النهاية ذلك المتمرّد العاصي.

ثم سحب صفارته من عبه في هدوء وأخذ يوقع عليها لحنا شجيا فيه معنى الصبابة والتضحية. وكان منتشيا، بلحنه

يتذوق آلامه الدفينة في شبه غيبوبة مسكرة. ا شديد التأثير بما سمعت.

الرجل صاحب الكلب

حدثني الراوي قائلاً:

عندما كنت طالباً في مدرسة الزراعة بالجيزة كنت أتردد في أوقات فراغي على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع العمومي يجري بجوارها جدول صغير وتتهدل فوقها أغصان شجرة عتيقة. وكنت أعتبرها حلقة الاتصال بين الحضر والريف أو بين المدنية والحياة الساذجة البدائية. فبينما تكون جالساً في مقعدك البسيط تشرب القهوة في هدوء وتصغي إلى خرير الماء وتشم رائحة النبات إذ بك تسمع دوي ترام أو سيارة ويمتلئ أنفك برائحة البنزين والتراب.

وكان يتردد على هذه القهوة رجل بدين الجسم كروي الوجه بأنف أفطس وعيون صغيرة يلبس بدلاً من المعطف حرملة من اللون الأزرق الكالنج ويلف رأسه بشال قديم مهلهل. وكنا في ذلك الوقت على أبواب الشتاء. وكنت ألاحظ عليه مظاهر الجربة. واعتقدت أنه من أرباب المعاشات الفقراء. وأذكر أنني لم أذهب إلى القهوة مرة واحدة ولم أجده. أراه دائماً في ركنه المعهود بجوار باب القهوة منتفخاً في جلسته يدخل النارجلة ويحتسي القهوة ويزعق بين فترة وأخرى على الخادم يصدر إليه أوامره الممضه. يصحب معه دائماً كلباً أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت. يزعج القهوة بنباحه الثقيل. كان سيده يبالغ في تدليله والاعتناء به. ويكلمه ببعض كلمات إنجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله: كام هير جيمي كام هير ماي دير.

ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن أهتم بهذا الرجل وكلبه وأدقق في ملاحظتي إياهما. مع نفوري منهما.

وذهبت مرة إلى القهوة فوجدت عويساً ماسح الأحذية
يتشاجر معه. وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح
وهو منتفخ الأوداج محمر العين يبصق أمامه بصقات متوالية.
ورأيت الكلب ينبج ماسح الأحذية بشدة ويجذب بأسنانه طرف
ثوبه. فتحاشيت التدخل بينهما وقصدت إلى مكاني بجوار
الجدول ومعني كتاب الزراعة المصرية لأذكر فيه. وجاء
صاحب القهوة فحسم الخلاف وشم عويساً وأرضى الأفندي
ببعض كلمات لا تخلو من تملق. وترك الكلب ثوب الغلام
وذهب إلى سيده فنظر إليه ملياً وهو يبصص بذنبه ثم تمدد
تحت أقدامه ونام.

وجاءني عويس يمسح لي حذائي كالمعتاد فمددت له
قدمي في حركة آلية غير ملتفت إليه وأنشغل الغلام بالمسح
وأنا بالتفكير وبعد برهة خاطبت عويساً ووجهي لا يفارق
الكتاب..

- من يكون هذا؟

فأجابني وهو منهمك في عمله.

- واحد حكيم لا طلع ولا نزل. يدعي أنه كان
حكيمباشي في الجيش في الزمن الماضي.

- والآن؟

- على المعاش

ثم رفع رأسه إلي وقال:

تصور يا بيه أنه يريد أن يعطيني قرش تعريفة واحد
في مسح حذائه ووضع شريط جديد له. وأي جزمة هذه التي
مسحتها. ربنا لا يوريك أؤكد لك أن الورنيش لم يمسه منذ أن
كان جنابه في الجيش..

قرش تعريفة واحد نظير مسحة وشريط جديد. الله الغني يا سيدي.. هذا خلاف الخدمات التي أؤديها له بدون مقابل. ولو كان شخصاً فقيراً ألقنا نخدمه لوجه الله ولكنه رجل عاكم. عاكم تمام.

وسمعت الحكيمباشي يبصق بشدة على الأرض فخفف عويس من حدته وهمس قائلاً:

- تصدق بالله، لو ذهبت إلى بيته لظننت أنك في مزبلة أو مرتبط بهائم. . . . لم كل هذا والدنيا أخرتها موت. فضحك واردم على هذه السيرة..

وغبت عن القهوة بضعة أيام. وبينما كنت مرة في الترام منهمكاً في قراءة (البلاغ) إذ شعرت بشخص يدخل العربية، وكانت مزدحمة بالركاب، ويحشر نفسه بين الجالسين وسمعت همهمة استياء من كل ناحية. ورفعت بصري لأرى من الداخل فوقع بصري أول وهلة على كلب اسود ضخم بشع الهيئة عرفته على الفور. ورأيت أمام مقعدي الحكيمباشي يمسح وجهه المحقن المعقد ويشد حرملته على أكتافه ويدفع جاره وهو يدمدم. وتلاقت أعيننا. وشعرت بأنني ابتسم له. وشاهدته يجيبني مجاملة بابتسامة سطحية خاطفة. وبعد لحظات قال لي مندفعاً:

- يدفع الواحد منا ستة مليمات لهذه الشركة الملعونة ليحظى بمثل هذه الجلسة المرهقة. نحن آدميون ولسنا بهائم حتى يحشروننا هكذا كأننا في عربة للحيوانات. لماذا لا يزيدون عربة على كل قطار في مثل هذه الأوقات. أقسم بالله ان سوارس الذي تدفع فيه ثلاثة مليمات فقط أحسن ألف مرة من هذا الترام.

فوافقته موافقة تامة. وأخذت أذم له الشركة بدوري.
فظهر على وجهه الارتياح وأخذ يناقطني الحديث بلهجة ودية
ومن غير تكلف كأنه يعرفني منذ أعوام، وقال:

- لم تحضر إلى القهوة منذ أيام

- كنت مشغولاً جداً. لقد هجمت علينا الدروس.

- إيه يا بني لو كنت معنا في الجيش لاستصغرت من
شأن مشاغلك.. كنت أنا لا أجد الوقت الكافي لأتناول كوب
اللبن في الصباح.

- حضرتك خدمت في الجيش مدة طويلة؟

فأجاب بلهجة متزنة وهو يعبث بسلسلة ساعته..

- ٤٥ سنة، ٤٥ سنة وأنا أعيش في الخيام وعلى
ظهور الجياد. أضمد جروح الجرحى وأعنى بالمصابين. ثم
أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقة بمعاش لا هو
في العير ولا في النفير. . . لا مكافأة ولا يحزنون..

ثم مال علي وهو يبتسم وقال:

- ألم تسمع المثل القائل: آخر خدمة الغز علقه.

وكان قد خلا مكان بجواره فنظر إلى كلبه الذي كان
ممدداً تحت أقدامه وقال له وهو يفرقع بإصبعه..

- كام هير جيمي. كام هير ماي دير.

وأشار له إلى المحل الخالي، فقام الكلب وبعد أن
تمطى وتثاءب في هيئة شنيعة قفز بجوار سيده والناس
يرمقونه بالنظر الشزر. وألتفت إلي الحكيمباشي وقال وهو
يلاطف كلبه..

- لم أر في حياتي كلباً وفيماً كجيمي هذا. أنه إنسان وليس بحيوان. لقد استغنيت به عن البنين فهو أبني وعن الخدم فهو تابعي الأمين. وعن الحراس فهو حارسي الذي يبذل دمه في سبيلي. أتصدق أنني لا أعاشر سواه في منزلي.

ثم نظر إلى كلبه وقال:

- أوه جيمي أي لاف يو فري ماتش

وكان بجواري شيخ معم فسمعتَه (يمصمص) بشفتيه ويتمتم قائلاً:

- لله في خلقه شؤون!

ووقف الترام على إحدى المحطات ودخل العربية محمد أفندي زكريا الموظف ببنك الكومرسيال الإيطالي فسلم علي في بشاشة. ثم التفت إلى الحكيمباشي وقال:

- أهلاً أسعد بك. في غاية الأشواق يا حبيبي.

وتحدثنا برهةً في العموميات، ثم رأيت أسعد بك الحكيمباشي ومحمد أفندي زكريا يفتحان باب البحث في المسائل المالية. فسكت وأصغيت لهما. وأخذتا يتعمقان قليلاً قليلاً فلم أعد أفهم من كلامهما شيئاً. وكانت أمثال الكلمات.. الكامبيو والبورصة وسندات الشركة البلجيكية وأسهم البنك العقاري والرنّت الفرنسي تطن في أذني طنيناً مزعجاً، وارتسمت على وجه أسعد بك أشد مظاهر الاهتمام فوجدت عينيه تحمقان في وجه محدثه حملة الجائع الشره، وطاقتي أنفه تتسعان كأنهما تستجديان الهواء. . . وأخيراً وصلنا الجيزة فسلم أسعد بك علينا ونزل لأنه كان يسكن في هذه البلدة. أما أنا ومحمد أفندي زكريا فتابعنا ركوبنا إلى الأهرام إذ كنا نرغب في تناول الشاي في (مينا هاوس) وملت على محمد أفندي وقلت له:

- إن لصاحبك باعاً طويلاً في الأمور المالية.
- إنه يا عزيزي يلعب بالجنيهات في سوق المضاربة
كما تلعب الأولاد (بالبلى)
- وهل يكسب؟
- لم أسمع مرة واحدة أنه خسر.

ومرت الأيام وكثرت مقابلاتي لأسعد بك في القهوة وتوثقت بيني وبينه روابط الصداقة. وأتضح لي أنه شخص غير مزعج كما توهمت قبل معرفتي إياه. فكان إذا رأيته في ركني المعهود منكباً على كتابي أذاكر درسي أحترم عملي ولم يفتح فمه بكلمة. أما إذا لاحظ أنني لا عمل لي دعاني إلى الجلوس معه. ولا أذكر أنه أكرمني بفنجان قهوة. أو قدم لي سيكارة واحدة. أما حديثه فكان سخيلاً ولكنه مسل للغاية. معظمه حكايات عن حياته الماضية في الجيش ونوادير عن كلبه لا تخلو طبعاً من مبالغات ومغالطات. وكان إذا تكلم عن كلبه لمعت عيناه بوميض غريب وخيل إليك أنه يتكلم عن ابن وحيد له وهبه كامل محبته وحنانه.

وتغيبت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت إليها فكان أول شيء لاحظته هو أن أسعد بك غير موجود. ولما جاءني غلام القهوة سألته عنه فلم يفدني شيئاً. وبعد قليل ظهر عويس ماسح الأحذية. وكان مسروراً يخطب بظهر فرشته صندوقه فسألته:

- ما الخبر يا ولد؟
- خبر عظيم جداً يا بيه.
- لقد أخذوا كلب أسعد بك في عربة الكلاب.
- يا شيخ!
- شاهدت ذلك يعينني رأسي.

ونالني شيء من الأسف. ولكنني لم أهتم بالأمر كثيراً.
واعتقدت أنني سأرى في الغد صديقي وكلبه يحتلان ركنهما
المختار في القهوة.

وبعد انقطاعي بضعة أيام ذهبت إلى القهوة فوجدت
أسعد بك وبحثت بعيني عن الكلب فلم أجده. وكانت عينا
صديقي مربدتين حائرتين ووجهه محتقناً. وسلمت عليه فسلم
علي في اقتضاب وصمت فلم أشأ أن أثقل عليه. وقصدت إلى
مكاني وفتحت كتابي وبدأت دراستي ولكنني ما كدت أفعل
حتى سمعته يتكلم في لهجة شرسة وكأنه يتحدث إنساناً أمامه
قائلاً:

ياخذون الكلب ويطلبون مني جنيهاً مقابل إطلاق
سراحه! جنيه! هذا نصب، نهب.. اخص على دي مصلحة.
وبصق بصقة كبيرة. ثم أتم كلامه. . .

- . مع أنني أفهمتهم أنني حكيم.. حكيمباشي الأورطة
التاسعة التي قهرت العصاة في الأبيض ودارفور. رجل مقامي
معروف وماضي مفعم بجليل الأعمال. مصلحة دون! لا
تعرف أصحاب المقامات.. اخص...!

وبصق بصقة أخرى. وكان يتكلم دون أن يلتفت
ناحيتي. ولكنني كنت متأكداً أن الكلام موجه إلي إذ لم يكن في
القهوة غيرنا. فرأيت من باب المجاملة أن أعير حديثه
اهتمامي. وقلت:

- جميع مصالح الحكومة بايظة.

فاحتد في كلامه وهو ينظر أمامه دائماً وقال:

- الا هذه المصلحة. إنها ليست بايظة فقط. إنها غير
موجودة. . . أتصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن

الكلب غير مكلوب وأنه ليس من الكلاب الضالة، ويقولون إن الإجراءات يجب أنتبع مجراها. إجراءات؟ هه! سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه الإجراءات معي ومع كلبى. سأريهم...!

وضرب بشدة على المائدة والتفت إلى هذه المرة وعينه تشعان باللهيب وقال:

- لقد أرسلت عريضة اليوم إلى وزير الحربية لتخلى سبيل كلبى في الحال.. في الحال.

فأجبتة على الأثر.

- حسناً فعلت.

وفي الغد سافرت مع فرقة من طلبة المدرسة إلى الصعيد وقضينا هناك أسبوعاً كاملاً نتنقل بين ربوعه متفرجين على آثاره العظيمة. وفي اليوم التالي لعودتي إلى القاهرة قصدت إلى قهوتي المعروفة. فرأيت عويساً جالساً القرفصاء على الأرض بجوار إحدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر زبائنه. فناديتة وسألته على الفور.

- ماذا جرى لكلب أسعد بك؟

فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- تعيش أنت!

- قتلوه؟

- منذ أربعة أيام.

ألم يدفع أسعد بك المبلغ؟

- يدفع المبلغ! انه يرضى أن يدفع لهم عينيه! ولا يتجاوز لهم عن الجنيه.

وشاهدت أسعد بك أتيا صوب القهوة يتوكأ على عصاه الغليظة ويسير في ثقل وإعياء، ولما اقترب مني ابتسم لي ابتسامة هزيلة وسلم علي ثم جلس. وأشار إلى المقعد الذي أمامه وقال:

- تفضل اجلس

جلست وبدأنا نتحدث في أمور تافهة. وكانت لهجته مهملة ونظراته فيها بعض الشرود. ولم يتكلم بكلمة واحدة عن جيمي فعلمت أنه لا يريد الخوض في هذا الموضوع. ثم خيم علينا صمت ثقيل فاستأذنت وقصدت إلى ركني.

ومنذ ذلك الحين اختلت مواعيد أسعد بك ولم أعد أراه دائماً في القهوة كلما ذهبت. وغير عاداته في فئجان القهوة السادة الذي كان لا يحيد عنه ولا يزيد عليه واستبدل به بضع كؤوس من العرق. وكان كلما ثارت الصهباء في رأسه اندفع يتكلم في إسهاب ممض وبصوت مرتفع كأنه يصرخ أو يشتم. وكانت موضوعاته دائماً لا تخرج عن سببه مصلحة الطب البيطري وسب العالم كله على السواء. كان يقول دائماً:

- الدنيا كلها نهب في نهب. اخص بلا قرف. وبدأ يضيفني على شرب الزبيب معه ويقول لي:

- لا تخش ضرراً. أنا حكيم. إن الزبيب مقو للدم وفتح للشهية. أحسن المشروبات كلها.

وأصبح مجلس أسعد بك لا يطاق. فلم أكن أنعم بتلك المحادثات المسلية. ولم يكن يتركني أذاكر دروسي في هدوء. بل كان دائماً يقلقني بصياحه المزعج ويضطرني إلى الإنصات له وتحبيز كلامه. وكان إذا رآني مقصراً في الالتفات إليه جاء إلى مائدتي ونقل مشروبه إليها واحتل مقعداً بجواري وبدأ يسح بشكاياته وشتائم.

وحدث مرة أن جاء صاحب القهوة بحساب الشهر (وكان من عادة أسعد بك أن يدفع الحساب شهرياً) فأخذ الورقة من يد الرجل وألقى عليها نظرة عابسة ثم صاح في وجهه:

- مائة قرش؟ جنيته! أما لصوص صحيح! لن أدفع هذا المبلغ ما حييت ودعك الورقة ورمائها في وجه صاحب القهوة. وأراد الأخير أن يتفاهم معه في لطف فأقرب منه ومعه الحساب وأخذ يوضح له عدد الطلبات التي طلبها. فدفعه أسعد بك بشدة وصاح..

- اذهب من أمامي لن ادفع شيئاً. كلكم لصوص أولاد كلب. فاحمرت عينا صاحب القهوة وقال:

- اللصوص وأولاد كلب يا حبيبي هم الذين لا يؤدون ما عليهم.

- اخرس! أتعرف من الذي تكلمه؟ أنا أسعد بك حكيمباشي الأورطة التاسعة في الجيش المصري.

- وماذا يهم؟ أنا أريد نقودي. ليس هذا الجنيه كجنيه مصلحة الطب البيطري الذي لم تدفعه إنقاذاً لكلبك. هذا جنيته ثمن مشروبات جررتها من محلي..

ورأيت سحنة أسعد بك قد انقلبت وصارت كسحنة النمر الهائج وقال وصوته يرتجف:

- ماذا تقول يا وقح؟ جنيته الطب البيطري! أتظن أنني قد بخلت بالجنيه في سبيل إنقاذ كلبي؟ أتجرؤ على هذا القول يا لعين؟ أنا أَرْضِي أن ادفع مائة جنيته لا جنيهاً واحداً من أجله.. ولكنني لا أدفع للصوص أولاد الحرام، كلكم تستحقون ضرب الصرم، ورأيت يده المرتجفة في جيبه في حركة شاذة ويخرج ورقة مالية من ذات المائة قرش وينهال عليها تمزيقاً في وحشية غريبة ويقول:

- أنتستطيع أن تقول إنني لا أستطيع أن ادفع جنيهاً..
ثم قام وأنشرب أظافره في رقبة الرجل. وقامت بين
الاثنيين معركة حامية استدعيت من أجلها الشرطة.

وساءت أحوال أسعد بك فلم أعد أراه الا مخموراً رث
الهيئة ممزق الملابس. قوي الشبه بهؤلاء المشردين مدمني
المخدرات الذين تراه في الطرق يستجدون المارة. وكان لا
يسكت لسانه عن النقود وبالأخص عن الجنيه الذي لم يدفعه
إنقاذاً لكلبه، وكان يؤكد لي في حماس غريب أنه لم يدفع هذا
الجنيه نكاية في مصلحة الطب البيطري وليفهمهم أنه ليس
مغفلاً أو ضعيفاً. وكان يروي الحكاية لكل من يقع عليه بصره
في القهوة أو في الطريق وهو يصيح ويهدد ويشتم. وإذا لم يجد
من يكلمه رأيته يحدث نفسه محتداً وهو يلوح بيده في حركات
شاذة.

وانقلب من شحيح متكالب على المال إلى مسرف
متلاف لا تعرف يمينه ما تنفقه شماله. وسمعت أنه كثيراً ما
يذهب إلى مصلحة الطب البيطري ليفدي الكلاب الضالة
ويخرج لها رخصاً بمبالغ لا يستهان بها. وكان يحرضني دائماً
على التبذير ويقول:

- اصرف وبحبح على نفسك.

وقابلت مرة محمد أفندي زكريا الموظف بينك
الكومرسيال فروى لي أخباراً مزعجة عن أسعد بك قال: أنه
يضارب الآن بجنون ويخسر خسائر فادحة.

وحلت الإجازة السنوية وانقطعت عن زيارة القهوة
ثلاثة أشهر كاملة ولما عدت إليها رأيت كل شيء فيها لم
يتغير. وكانت مائدتي المختارة في موضعها بجوار الجدول
تظلها أغصان الشجرة العتيقة. فكأنني لم أفارقها إلا منذ ثلاثة

أيام. واستقبلتني الوجوه التي أعرفها كل بابتسامته الخاصة.
والتفت حولي مشرق الوجه وأنا أقول:

- كل شيء كما هو!

وبغثة قلت لعويس الذي كان يمسح مقعدي في هرج
وسرور ويهيئ نفسه لمسح حذائي..

- أين أسعد بك؟

فتوقف عن عمله ورفع بصره إلي وقد غابت ابتسامته
وانقطع ضجيج المرح وقال بلهجة قابضة:

- ألم تسمع عنه شيئاً؟

- كلا

- لقد أرسلوه إلى المارستان. كانت حالة المسكين في
المدة الأخيرة عبثية. وكنت أنا الذي أعتني به.

- ما هذا الكلام؟

- الحقيقة ما أرويه لك.

- وهل يمكن أن نزوره في المارستان؟

ومد عويس صندوقه تحت قدمي وبدأ يمسح في هدوء.
وقال في لهجة غريبة:

- كلا يا سيدي لا تستطيع أن تزوره. . . لن تراه أبداً..
ونكس رأسه. . . فنكست رأسي أنا أيضاً وبدأت أستغرق في
تفكيري الحزين.

الباب المقفل

ذهبت إليه، وسألته أن يعطيها الكتاب الذي وعدها به فوقف هنيهة يفكر: أين وضعه؟ . . . ثم تمت:

لعله في حجرة البيان!

وتقدمها إلى الحجرة، فدخلها. إلا أنها تنبهت إلى شأن غير عاديّ بدر منه. لقد أقفل الباب بالمفتاح! . . . فتسارعت دقات قلبها، واختلست إليه النظر، فوجدته قد اتجه إلى الخزانة، واندفع يقلب محتوياتها. . .

كيف اجترأ أن يقفل الباب بالمفتاح وهي معه؟ من يظنها؟! ورمته بنظرة حادة. . .

وأبصرت خصلة من شعره الذهبي قد تهدلت على جبهته. . . يا لله! لم تره على هذه الفتنة قبل الآن. . . قامة مبسوطة، ومنكبان عريضان، ووجه صبيح عليه طابع الرجولة الحق!

لم تره قبلُ في هذه الفتنة، على أنها نشأت وإياه في منزل واحد، وكان يكبرها بعشر سنين، فهو ينظر دائماً إليها نظرات الأخ الكبير إلى أخته الصغرى. . .

ووقع بصرها على خيالها في المرأة، فتذكرت معابثته إياها إذ كان يلقبها أحياناً بالصفدع، لقصر قامتها!

ورفعت عينيها إليه ثانية

ها قد حبسها معه في حجرة واحدة، هذا الفتى المبسوط القامة، العريض المنكبين! . . .

إنه يتظاهر بالبحث عن كتاب، ويطيل التقلب فيما بين يديه، وقد يكون الكتاب المقصود على قيد أنملة منه!

ما أجعله بعقول الفتيات! . . . إنه ما برح يتوهمها طفلة، على حين أنها استقبلت منذ أيام عامها السادس عشر!

ولكن أية مفاجأة تلك التي يفكر فيها؟

أهجوم مصحوب بقبلة حرّى؟

إن يدها على استعداد لدفع هذا الهجوم!

صفعة قوية تثيب إليه رشده. . .

وجعلت ترنو إليه، وهو منهمك يبحث عن الكتاب، وكان مرتدياً منامةً حريريةً تنموج على جوانب جسمه الرياضي البديع، الذي يحسده عليه أجمل كواكب (السينما) . .

وأطالت النظر إلى ساعديه القويين، فاختلج جسمها بهزة كهربية. . .

لقد أنبها أخيراً لأمر تتعلق بسلوكها. . . أ تكون الغيرة قد بدأت تتسلل إلى قلبه؟!!

هو قليل التحدث معها، ولكنه كثير التفكير والسهوم. وهل تنسى يوم سارقها النظر، فتضرج وجهها؛ فغضب لافتضاح أمره، ونهرها بشدة؟!!

ما أشد كبرياءه! ولكنها ستتهزم اليوم هذه الكبرياء هزيمة ساحقة. . .

سيجثو تحت قدميها، ويقول لها: (كم أحبك. . . كم أحبك يا عصفورتي الصغيرة! . . . فتجيبه، وهي مهتاجة:

(دعني أخرج! افتح لي الباب. . .) ثم يمسك بيديها، ويغمرها بقبلاته وهو يكرر: (ارحميني! . . . ارحميني! . . .)

وأخيراً رفع رأسه عن كومة الكتب، ثم التفت إليها، فراها تبتسم له، فأجابها بابتسامة سائحة!

تلك هي العاصفة توشك أن تهب، فلتستعد لها. . .

إنها لم تره على هذه الوسامة قط. . .

أتراه يفكر في حملها بين ذراعيه، ثم يقفز بها من النافذة إلى الحديقة، ثم يظل يعدو بها. قد يعقد الذعر لسانها، فلا تستغيث ولا تتحرك. . . فلا يفتأ يجري ويجري. . . فإذا ما امتلكت نفسها، واستعادت شجاعته، وأرادت أن تصيح، أسكتها بقبلة طويلة!

لم يعد يبحث عن الكتاب، إنه في تفكير شارد مضطرب. يُعد برنامج الهجوم. . . أفلا تتقدم إليه من فورها، وتباغته بقولها:

لقد كشفت عن خطئك. . . سأفسدها عليك. . . افتح الباب، ودعني أخرج. . .)؟!

والتفت إليها في هذه اللحظة، ثم رآته يدنو منها. . .

يا لله! ما أشد خفقان قلبها! . . . إنها تسبل جفنيها. . .!

وسمعه يقول:

هذا هو الكتاب.

فرفعت إليه بصرها، فإذا به يمد إليها يده بالكتاب الذي كان وعدها به. وقد زوى ما بين حاجبيه. . . فأخذته منه في صمت!

وأبصرته يفتح الباب بالمفتاح، وينفذ منه، وهو يصيح
بالخادم قائلاً:

ألم أمرك غير مرة بإصلاح هذا الباب؟ إن المرء
ليضطر لاستعمال المفتاح كلما دخل أو خرج تفادياً من هذا
التيار الشديد! . . . ثم اختفى عجباً.

ولبثت الفتاة طويلاً تحقّق في الجهة التي اختفى منها.
. . ثم وقع بصرها عفواً على الكتاب في يدها فاندفعت إلى
النافذة، وقذفت به!

ثم ارتمت على المتكأ، وانكبت على منديلها تمزقه
بأسنانها. . .

في الطريق إلى قرطبة

(عندما استتب الأمر لأبي العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين هرب الأمير عبد الرحمن الأموي من العراق ووجهته الأندلس ليتسم عرش الأمانة فيها بمعاونة أنصاره الأمويين. فبينما كان في شمال أفريقيا وقعت له هذه الحادثة التي نرويها)

كان القمر ينشر نوره الفضي على قرية (مغيلة) في مراكش، فتبدو الدور على ضوءه الهادئ كأنها تتمطى مبتسمة رافعة هاماتها إلى السماء تتفض عنها فتور النوم. في تلك الساعة التي بدأت فيها القرية تتنفس كان يسير في طريق من طرقاتها المهجورة رجل طويل القامة نحيف الجسم ملتف بعباءة دكناء ووجهه ملثم. كان يسير سيراً حثيثاً في مشيه حذرة، متجنباً الأماكن التي انحلت عنها غبشة الليل، تدل مظاهره التي يجتهد في إخفائها على الأمانة والجاه. ولما دنا من دار (وانسوس) رئيس أقوى قبائل البربر في تلك الجهة توقف عن المسير والتفت حوله ثم دفع الباب في سكون ودخل، ثم أحكم إغلاقه خلفه، وما إن خطا بضع خطوات، حتى تقدم إليه (وانسوس) في خضوع وقال في صوت خافت:

-مولاي الأمير

-كدت أضل الطريق

وبدأ الزائر يرفع لثامه ويحل عباءته، فظهر عارضاه الخفيفان وبانت ضفيرتاه على ظهره، وسار بخطوات رزينة وخلفه (وانسوس)؛ وقال:

-هل أحضر (بدر) الجواهر؟

-أحضرها يا مولاي وهي ودیعة عندي لا تستطيع أن تمتد إليها يد إنسان

-وماذا قال لك؟

- إن أختك (أم الإصبع) تقرئك السلام وتقول لك إنها سترسل لك غيرها

- بورك فيها. . . وماذا بعد ذلك يا (وانسوس)؟

- وإن وهب بن الأصفر وشاكرين أبي الأسط يستحثانك على السفر، إن المراكب معد وهم في انتظارك

وكانا قد تلغا بهواً تتوسطه نافورة وقد نثرت بجوار حيطانه وسائد عريضة؛ فوقف الأمير أمام النافورة يتأمل المياه ويداه مثنيتان على صدره وقال:

- وأهل الأندلس؟

- يرحبون بمقدمك لتتقدهم من أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري. هناك أبناء عمومك يا مولاي ومعهم أنصارهم الأقوياء ثم لا تنس القبائل اليمينية

- هذه حطمتها قوات الفهري

- بل ما زالت محتفظة برجالها الأقوياء

- إن الحروب الأهلية يا (وانسوس) قد نهكت الأندلس، وعمها القحط وجلا كثير من أهلها عنها، فإذا أردنا أن نستعجل النصر فلنعتد على الذهب نكسب به الأنصار

ودخلت في تلك اللحظة (تكفات) زوجة (وانسوس) وكانت امرأة بدينة تلبس إزاراً واسعاً، دخلت في عجلة واضطراب وهي مكفهرة الوجه وقالت:

- بينما كنت على السطح في مكاني المخصص
للمراقبة أبصرت رهطاً من الرجال مقبلين في سرعة
وتلصص نحو الدار، فما شككت أنهم من رجال ابن حبيب
فتغضن وجه الأمير وقال بصوت أجش:

- لقد وشي بي الواشون

وهرع وانسوس إلى البرج ليستعلم الخبر ثم عاد
مضطرباً وهو يقول:

- عجل يا مولاي بالهرب

وجرى الاثنان نحو البرج، ولكن ما كادا يطلان منه
حتى عادا أدراجهما والأمير يتمم:

- لقد أحاطوا بالدار

وسمعت في هذه اللحظة جلبة عالية في الخارج فيها
وعيد وتهديد وطرح الأمير عبد الرحمن عباءته واستل سيفه
ووقف وقفة الجبار ناظراً إلى باب البهو وقد انطبع على محياه
المهيب عزم رهيب وقال:

- إني لأشعر بأرواح بني أمية كلها قد تقمصت جسدي
فيأت ابن حبيب وجيشه يجرب حظه معي

واشدت الجلبة وسمع قرع قوي على الباب وأصوات
تقول:

- افتحوا. . .

وقال الأمير لوانسوس:

- اذهب وافتح الباب

ووقف وانسوس متردداً

وتكرر القرع بحماس شديد. وسمع الباب يهتز ويتفلق
والأصوات تتعالى في سخط مرردة:

افتحوا. افتحوا. . .

فقال الأمير وهو ينظر إلى وانسوس نظراً حاداً:

- لقد أمرتك أن تفتح الباب

فقال وانسوس في ذلة ويأس:

- الأمر لك يا مولاي

وذهب قاصداً الباب. وما كاد يخرج حتى أشرق وجهه
تكفات بغثة ولمعت عيناها. وتقدمت في جراءة غريبة نحو
الأمير وقالت:

- إنها لحظة من لحظات الدهر الخالدة. فإما إلى
العرش وإما إلى القبر. . . تعال

وفتح وانسوس الباب فتدفق الرجال في صحن الدار
وضجتهم تسبقهم، ووقف زعيمهم مكشراً أمام وانسوس وقال:
اقبضوا على هذا الخائن. . .

وفي لحظة كان وانسوس مقيداً وملقى بجوار الحائط؛
وأتى الزعيم أمره قائلاً:

- دونكم الدار فلا تتركوا مخبأ إلا دخلتموه، أو ركناً
إلا فتشتموه، وإياكم ألا تعثروا عليه

فانتشر الرجال في الدار يفتشون، وسار الزعيم في
رھط من أنصاره قاصداً إلى بهو النافورة واختفى الجميع فيه

ومضى الوقت ووانسوس ملقى بجوار الحائط يصغي
بأذن مرهفة إلى ضجيج الرجال في داخل داره وعيناها
الحائرتان لا تفارقان باب البهو وأخيراً فتح الباب وخرج منه

الزعيم وخلفه رجاله. ولما دنا من وانسوس ألقى عليه نظرة احتقار ثم التفت إلى جماعة بالقرب منه وقال:

- حلوا وثاق هذا الرجل

ثم سار في عجلة نحو الباب وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة وخرج والجميع في أثره. وقام وانسوس وهو يفرك عينيه دهشاً، وبعد أن أحكم قفل الباب سار مهولاً إلى بهو النافورة فوجد زوجته (تكفات) جالسة على إحدى الوسائد متكئة بظهرها على الحائط؛ فما شك وانسوس أن قواها خارت من الخوف. فأقبل عليها وسألها قائلاً:

- أين الأمير؟

وفي لحظة كشفت إزارها الواسع فخرج من بينه الأمير وما إن توسط البهو حتى قال:

- تالله إن عرش الأندلس لمدين (لتكفات) بهذه الحيلة لن أنسى لك هذا الجميل يا (تكفات)

فانحنى المرأة أمامه في خضوع

ووقف الأمير عبد الرحمن أمام النافورة ويدها مثنيتان إلى صدره، وقال وقد سطع على وجهه العزم واليقين في صوت ممتلئ قوي:

لقد بت أعتقد أن العناية تساعدني. فهناك على شاطئ الفرات حيث كانت فرسان أبي العباس تلاحقني أنا وأخي نجوت بأعجوبة لم أكن أحلم بها في حين أن أخي قد عاكسه القدر فقبض عليه وقتل على مرأى مني. وهنا تمر بي رجال أبي حبيب وأنا على بعد خطوات منهم فلا يخامرهم شك في أنني غير موجود

وأرسلت عيناه وميضاً عجيباً، والتفت حوله وهو رافع
الرأس كأسد منتصر على فريسته وقال:

- إيه أيها القدر! تعصمني والعباسيون يتهاكون على
الفتك بي، يطاردوني في كل شبر من الأرض. . . إني لأرى
الأندلس تدنو مني كما يدنو مقبض هذا السيف من يميني

في ظلمة الليل

أسطورة فرعونية

في أصيل يوم من الأيام، كان (الشيخ حابي) في بستانه الصغير، أمام داره المتواضعة، يتعهد تخيلاته ويستريح. فاسترعى انتباهه خفق أقدام، فالتفت نحو مصدر الصوت، فإذا بفتى يسير صوبه، وهو يدفع - في جهد - قدميه المتعبتين، وقد علاه الغبار، فاخفت ملامحه؛ بيد أن الناظر إليه يستطيع أن يلمح في عينيه على الفور حيرة الغريب. وكان يحمل في يده صرة؛ فحف الشيخ للقاءه، وما إن اقترب منه، حتى سمع الفتى يقول في صوت الهامس:

- الشيخ حابي؟

- هأنذا. . . ما مطلبك؟

ووجد (حابي) الفتى يتخاذل أمامه، فأسرع إليه، وأسنده إلى صدره، محيطاً إياه بذراعيه، وقال له:

- أمريض أنت؟

- بل جائع!

وسار به (حابي) إلى داره في رفق، وأجلسه بجوار الباب على مصطبة عارية، وتركه برهة. . . ثم عاد إليه بإبريق مملوء باللبن، فأخذ يعب منه الغريب، حتى شبع. . . وبعد أن تنفس طويلاً، تمتم بكلمات الشكر لمضيفه، ثم أطرق وقتاً. . . وأخيراً، رفع رأسه، وسرح بصره في الشيخ،

والكلمات تتراءى حيرى على شفثيه. . . وابتسم الشيخ ابتسامة
تنطوي على عطف وطيبة، وقال:

تكلم يا بني، ولا تخش بأساً. . . ما حاجتك؟ أن حابي
لا يرد حاجة الغريب!

فأمسك الفتى بيد الشيخ، وضغطها في انفعال، وقال:
- لقد حدثوني أنك تأتي بالمعجزات، فسعيت إليك
أطلب معجزة! . . .

فتأمل الشيخ وجه فتاه طويلاً، يحاول أن يستكنه ما
خلف تلك الصفحة المتربة التعب من خفية نفسه، وقال:

- معجزة؟ . . . لست كاهناً يا بني!

- أنت أعظم من كاهن. . .

- أفصح عن غرضك!

- إن قوة تعاويذك وعقاقيرك يا أبت مستمدة من روح
الآلهة. . .

- أنا حكيم زاهد، قد أنجح في مداواة النفوس وتطبيب
الأجسام. . .

وحدق الفتى في الشيخ بعيون جاحظة، ثم هبط أمامه،
وقال وقد تشبث بثوبه:

- وحق إيزيس لتنتزعن نفسي من بين جوانبي،
ولتلقين بها بعيداً عن جسدي!

- هدى من روعك. . .

- إنني أمقت هذه النفس الخاملة الميتة. . . لتخلقني خلقاً
جديداً، ولتجعلن مني رجلاً ذا بأس واقتدار!

وجعل الشيخ يلاطف رأس الفتى، ثم أنهضه في وداعة، وأجلسه بجواره. وبعد حين، قال له في هدوء ورزانة:

ارو لي قصتك يا بني. . . إني مصغ إليك في انتباه!

ودعم الفتى وجهه براحتيه، وراح يرسل الطرف أمامه في ذلك الفضاء العظيم، حيث يبسط الغسق على الكون غلالته السوداء. وأنصت برهة إلى ما يحيط به من صمت شامل. ثم تكلم فإذا به يقول:

أنا راموسي. . . ولكن ماذا يهمك من أسمى؟ أن راموسي نكرة لا يحس وجوده أحد

- تكلم!

- إني أسكن على مسيرة شهر من هنا. . .

- في بلدة رنسي؟

- نعم!

- ذات المعابد الأربعة، والمسلات الخمس؟!

فواصل (راموسي) حديثه، وقد رق صوته وضعف: وحيث تسكن الأميرة أشمس. . .!

وطأطأ رأسه حيناً، ثم رفع عينه بغتة، وسددها في وجه (حابي) وقال في صوت غير متساق النبرات:

أريد أن أكون عظيماً. . . أريد أن أكون مثرياً. . .
تزرخ خزائني بالأموال. . . أريد! . . .

فابتسم الشيخ في هدوء، وقاطعه قائلاً:

أنه ليس بالطلب المستحيل. . .

فاستنار وجه الشاب بلمعة متألئة. . . وقال:

إذا ستأتي لي بمعجزة!

- أن ما تسميه أنت معجزة يا بني، أسميه أنا أمراً قد يستعصي على بعض الناس، ولكنه في مقدور آخرين!

فهوى (راموسي) على يدي الشيخ، وانهاه عليها تقبيلاً، وهو يقول:

شكراً شكراً، سأذكر لك ذلك الجميل ما حييت،
وسأعوضك عنه أضعافاً مضاعفة. . .

ثم رفع رأسه، وقال:

أما الآن، فليس لي ما أقدمه لك سوى. . .

وتعثر لسانه بالكلمات، فسكت وأشار إلى الصرة التي بجواره، وفتحها بيد راعشة أمام (حابي) فنظر فيها الشيخ، فإذا بخليط من قطع المعادن، بينها شيء قليل من الفضة والذهب. وتابع (راموسي) كلامه وقد غض من بصره:

- هي كل ما تبقى لي مما أملك!

- أبقها لك. . .

- إنها قليلة. . . أعرف ذلك!

- كلا، فهي كثيرة إذا كانت منك. وهذا يكفي. . .

ولكنني لست في حاجة إلى عطاء الناس. . .

- أبنت!

ونفض (حابي) في هدوء وهو يقول:

- إلا ترى يا بني أن الليل قد أقبل يحمل في أعطافه

برد المساء، وأنا كما ترى شيخ. . .

- هيا. . .

وتركا المصطبة، ودخلا قاعة غير رحيبة، بسقف منخفض تكاد تكون عارية إلا من حصير وغطاء

وأشعل (حابي) مصباحه الزيتي، ثم جلس وأراح ظهره على الجدار وقد طوى يديه إلى صدره. وجلس (راموسي) قبالة متربعا، لا يفصله عن الشيخ إلا المصباح. .

وانقضت برهة لم يتكلم فيها أحد منهما

ثم سمع (حابي) يردد في صوته الرزين:

- إنني مصنع إليك!

فلم يحول الفتى عينيه عن المصباح وقال:

- كيف ابدأ لك قصتي. . . حقاً أنه لجنون ما فكرتُ فيه. . . غير أنني لست نادماً على شيء. . . لقد كنت أحيا يا أبت متبطلاً، أخرج من داري المهدمة إلى النهر أرتاض على شاطئه حيث بساتين الأمراء، أقضي اليوم كله متنقلاً بينها، أستمتع بمراى الرياحين، وأستنشق عرفها الزكي. فإذا تعبت استرحت بجوار الماء وأخرجت نايمي أناجيه ويناجيني!

- أموسيقى أنت؟

لم أجرب أن أصفر إلا لنفسي. . .

وأخرج (راموسي) من ثنايا ثيابه ناياً من غاب ساذج المظهر، وأراه الشيخ قائلاً:

- أنه زميلي الذي لا يفارقني أبداً. . . زميلي المطلع على سري، العالم بما يجيش في قلبي من أمان وأطماع!

- أمان وأطماع قد تبدو لك بعيدة التحقيق!

- أنني أضعها بين يديك، فافعل بها ما أنت صانع!

- ألم تكن راضياً عن حياتك الهادئة؟

- كل الرضا!

- إذاً (هي) التي غيرت حالك. . .

- من هي؟

- تلك التي ذكرت اسمها، مشرفاً بذكره مدينة رنسي!

- نعم، هي أشمس، أميرة الأميرات، وأقربهن صلة
بفرعون الأعلى!

- أتم حديثك. . .

- رأيتها يوماً تتنزه في بستانها، فسحرتني لأول نظرة
جمالها؛ رأيتها ترتاد الخمائل في حاشيتها؛ فجعلت أرقبها خلف
دغل من الأشجار، وأضاءت نفسي على التو شمس وهاجة
أنارت لي دنيا عظيمة كانت مختفية عني. وإذا بي أقطع على
نفسي عهداً بأنها لن تكون لسواي. . . ولما عدت إلى داري،
وراجعت هجسات ضميري، هزئت بنفسي، وكلي سخط وألم.
ولكن عهدي ما زال ثابتاً على الرغم من كل شيء، لا يتقهقر
ولا يتزائل، بل يتقدم في جرأة وإقدام. . . ولكن كيف أنفذ ذلك
العهد؟ هذا ما كان يحيرني ويحز في قلبي. منذ ذلك اليوم
جعلت طريقي إلى بستانها لا أعرف سواه، أقضي على مقربة
منه يومي، أراها ولا تراني. فإذا ما صعدت في قصرها
انتحيت نحو الشاطئ، وتخيرت مكاناً ظليلاً، وبثت شكواي
للنאי، فكنت أسمعه أحياناً يهمس لي: (لماذا لا تحاول التقرب
إليها؟ . . . لماذا لا تكشف لها عن كوامن صدرك؟ . . .)

- ولماذا لم تصدع بما أوحى لك به نايك؟

- أتريد مني أن أستمع لذلك الساذج الغرير؟ ألم أقل

لك من هي؟ أن فيها من دم الآلهة يا أبت! . . . وكلنا نعلم أن

عظماً تقدموا إليها بقلوبهم، فردتهم خائبين. . . لقد أمضيت يا
أبت الليالي الطوال أفكر في مصيري معها. . . لا بد أن تقع
معجزة تحولني من صعلوك بائس إلى أمير يفوق جميع
الأمراء، يرضاه فرعون وترعاها ايزيس. . . وكان أن اشتد
بي الضيق يوماً، فجريت صوب النهر، وهممت أن ألقي
بنفسي إلى التماسيح. . . في تلك الساعة الفاصلة، سمعت هاتفاً
يقول لي: (اذهب إلى حابي الحكيم، فعنده تتم المعجزة)

فتمتم (الشيخ حابي):

- أقال لك الهاتف ذلك؟

- قسماً بإيزيس ربة الأرباب، لقد سمعت صوته
واضحاً يرن في أذني. وكانت التماسيح قد خرجت برءوسها
تتنظر إلي متمرة فوجدتني في لحظة أقفز متراجعاً عن النهر،
وانطلقت أعدوا. . . أكنت أعدو حقاً؟ لا أدري! كنت أحس أنني
محمول بقوة خارقة غير منظورة..

وفي الغد بعث ما أملك، واستصفيت مالي، وحملت
زادي، وسرت ووجهتي دارك!

فأمسك (حابي) بيدي (راموسي) وضغطهما وقال:

- ستتم المعجزة يا ولدي، فاعتمد علي

- إذاً ستجعلني أمير الأمراء؟ وإذاً ستجعل من أشمس
زوجة لي؟

- أن علمي لا يتناول إلى مثل هذه الأمور!

- كيف؟

- كل ما أقدر عليه أن أعمل على تغيير نفسك. . .

- أوضح يا أبت!

- سيتغير فيك كل شيء، شمائلك الأصيلة ستتقلب إلى ضدها، الخمول سيغدو نشاطاً متأججاً، والقناعة ستكون طمعاً صاخباً، والرحمة ستفسح مكانها للقسوة والعنف. . . ستكون حياتك يا راموسي كالبركان الفوار، لا يخبو له لهب، ولا يسكن له زئير!

فطأطأ (راموسي) رأسه، وقال:

- أبت!

- ليس ثمة طريق ينيلك ما تطلب من ثروة وجاه ومجد، إلا هذا الطريق!

وصمت (راموسي) فترة، ورأسه منحن على صدره، وبغته رفع وجهه إلى (حابي) وقال:

- ولكن حبي، حبي. . . أيعتريه تغير؟

- حبك باق بقاء الروح الخالدة. . . ولكن!

- ماذا؟

- أوافق أنك ستكون سعيداً بنفسك الجديدة، بعد أن تتم المعجزة؟ وأنه لن يطول بك الحنين إلى نفسك الأولى؟

- . . . افعل بي ما تريد!

ودارت عجلة الحياة: الأيام تلو الأيام، والأشهر إثر الأشهر. . .

وكان ملك الغرب قد دفعه الطمع إلى امتلاك مصر، فسير إليها الجيوش الكثيفة؛ فغزت المناطق الشمالية في غير عسر، ثم اندفعت في طريقها تكتسح أمامها جند الوطن. ولم يجد تعيين القائد الكبير (رودا) أميراً على الجيش الذي أرسله فرعون لإنقاذ البلاد. . . إذ أصيب (رودا) بهزيمة نكراء،

وقتل في المعركة، وكاد الجيش يتفكك ويندثر، لولا أن قيض الله له شاباً من بين المحاربين تزعمه، فأخذ يجمع شمله، ويبث فيه روحاً جديداً؛ فلم ينقض وقت طويل حتى انقلبت الهزيمة إلى هجوم، ثم انته الهجوم إلى مطاردة للعدو، فاكتساح كامل له. وأصبح هذا الشاب قائداً للجيش، ولقب نفسه بالأمير الأسود، إذ كان يرتدي السواد دائماً. . . ولم يقتصر هذا الأمير على تطهير البلاد من جيش العدو، بل تابع زحفه في جردة غربية، ففتح (مملكة الغرب) بأسرها، وأخضعها لسلطان مصر، فصارت تابعة لها. . .

كانت (رنسي) المدينة ذات أربعة المعابد وخمس المسلات حاضرة مصر الثانية، تحتفل احتفالاً شائناً بقدوم الجيش المنتصر، وعلى رأسه أميره الأسود، فقد عاد محملاً بأسلاب وغنائم لم يأت بها قائد منتصر من قبل. وكان موكبه حافلاً بالأسرى العظام من الأمراء والحكام وسراة الدولة المغلوبة. أما بقية الأسرى من الدهماء، فقد اكتفى بقطع أيديهم، وأطلق سراحهم، حتى لا يعطلوا سير الموكب بكثرة عددهم. ولكنه احتفظ بتلك الأيدي، فحملها معه ليقدمها إلى فرعون، رمزاً للخضوع والطاعة!

وتمت مراسيم الاستقبال في عظمة وفخامة جديرتين بالقائد العظيم والفتاح الكبير! . . . ولكن الأميرة (أشمس) أولى أميرات البيت الفرعوني، تخلفت عن حضور الاحتفال، وأرسلت تعتذر لفرعون. وكان فرعون يعرف شذوذ طباعها واعتزالها العالم، فقبل عذرها على مضض. ولكن رسول الأمير الأسود جاءها يحمل من الأمير نفسه رغبته في زيارتها قبل الغروب لأمر ذي بال؛ فلم تجد مخلصاً من استقباله، وأمرت أن يعدوا القصر لهذا القدوم.

وأخذ الأتباع يعلمون بجد واهتمام في تزيين القصر،
فما كادت الشمس تؤذن بالغروب حتى برز القصر في غبشة
الظلام كأنه قطعة من لؤلؤ تتألق؛ وانتشر الطيب الذكي في
أرجائه، فكانه روضة فواحة من الأزاهر النضرة.

وجاء الأمير في الموعد في حفل من قواده، ودخل
القصر وهو يضرب بقدميه الصليبتين الأرض ضربات شديدة
تردد صداها جوانب المكان، ويلتفت يمنة ويسر بوجهه الرائع
الذي تتم كل لمحة من لمحاته على رجولة قوية قاسية. وكانت
لعيونه الواسعة إشعاعات قوية باهرة لا تقوى عين أخرى على
تحديها. . .

وما أن دخل البهو الكبير، ورأى الأميرة واقفة في
صدره تحف بها وصيفاتها، حتى توقف بغتة، واتسعت حدقتا
عينيه، وتفتح وجهه في لحظة بنور متألق تشيع فيه الأحلام.
وأمسك بيد رفيق له بجانبه، وشد عليها؛ وطالت وقفته على
هذه الحال والناس من حوله صامتون. وأخيراً همس رفيقه في
أذنه:

- مولاي! إن الأميرة تنتظرك. . . تقدم!

وتقدم الأمير الأسود بخطوات لم تردد صداها جوانب
المكان هذه المرة، وركع أمامها ركعة المتبتل أمام ربه
فأنهضته، وهي تقول:

نحن الذين يجب أن نركع أمام المنقذ العظيم!

ورفع وجهه إليها، وقال في صوت خفيض:

عفواً مولاتي! . . . أمام هذا الجمال الإلهي الذي هو
قبسة من رع، ونفحة من إيزيس، يستشعر القائد العظيم ظالة
نفسه وتقاهة مجده!

- سيدي!

- ليس ثمة عظيم أمامك يا مولاتي! . . . كلنا من أتباعك المخلصين!

وتهامس الناس فيما بينهم دهشين حيارى:

لم يشاهد الأمير على هذه الصورة، حتى في حضرة فرعون الأعلى!

وبدأت الجموع تتفرق والمكان يخلو للضيف وربة القصر، وأخذ القائد يروي وقائعه، ويعدد أسلابه، ويذكر ما ناله من مال وضياع تتعادل معها أموال فرعون العظيم. وختم حديثه قائلاً:

إن الأميرة لتعلم أن فرعون بلا عقب، وهو الآن شيخ مثقل بالمرض، وقد طالبتة الكهنة بتبني أمير يجعله ولياً للعهد، أمير أهل لهذا المنصب الخطير. . .

- وهل وقع اختيار الملك على هذا المحظوظ؟

فابتسم الأمير ابتسامة ذات معنى، وقال:

لقد أتم اختياره سرّاً، وسيعلنه غداً في الهيكل الكبير!

وصمتت (أشمس) وهي تتفحص الأمير طويلاً. . . ثم انحنت في خشوع وهي تقول:

يسعدني أن أكون أول من يقدم طاعته لصاحب التاجين، وريث ملك الفراعنة العظيم!

فأمسك الأمير بيدها، وقال:

هذا الملك العظيم، وهذا النصر الباهر، وهذه الأموال التي لا يستطيع أن يحصيها أحد. كل ما كسبته وما سأكبه،

أضعه تحت قدميك أنت يا أميرتي، ويا مولاتي! . . . أقدم لك
كل هذا مقابل شيء واحد منك. . .

فأسبلت الأميرة جفניה، وتابع الأمير حديثه في لهجة
مشبوبة:

كلمة منك يا أشمس تجعل هذا الوادي الفسيح بسكانه
وكنوزه، هذا الملك الضخم طوع يديك. . . قولي كلمة الرضا،
ثم مري، فلن يعصي لك أحد أمراً. . .

ونهضت الأميرة، وهي تقول في صوت حبيس:

ألا نذهب إلى الشرفة فنلقي نظرة على البستان؟

فأجابها الأمير، وهو حائر:

كما تريد!

وذهبا إلى الشرفة، وأطالت الأميرة النظر إلى الحديقة،
وهي تصعد بصرها في أشجارها وأزاهيرها. ثم قالت:

أيسمح لي الأمير أن أقص عليه قصة صغيرة؟

فأجابها، وهو يزداد عجباً:

إني مصغ إليك يا أميرة!

- كان في الزمان الغابر فتاة من الأثرياء، من أسرة
رفيعة النسب؛ تحيا ناعمة البال في قصرها ذي البستان الكبير
حياة ترف ورغد، ولم يكن لها مطمع تصبو إليه إلا العثور
على أليف تتعم معه بحب ووفاء، شأنها في ذلك شأن كل فتاة.
وحج إلى قصرها أعلى الأمراء شأنًا، وأكثرهم جمالاً وثراء
يطلبونها للزواج فردتهم بلا أمل. . .

- ولم ذلك!

- لأنها كانت مخدوعة بنفسها، مغرورة بجمالها، فلم يرقها واحد من هؤلاء الأمراء!

- ومن كانت تنتظر أن يتقدم لها بعد هؤلاء، وهم صفوة البلد. . ؟!

وتريثت الأميرة في إجابتها، وهي تسرح طرفها في الأفق حيث الظلام مقبل في وحشته وصمته وأسراره. . . وقالت:

- هي نفسها لم تكن تدري، ولكنها على الرغم من ذلك كانت تنتظر وتؤمل!

- وهل طال انتظارها؟

- كلا!

- إذا عثرت على ضالتها؟!

- نعم أيها الأمير. . .

- أكان قائداً غازياً؟

- كلا!

- أوزير خطير هو؟

- كلا!

- إذا هو ملك من نسل الآلهة!

- ولا هذا أيضاً. . .

- من يكون؟!

- وأرسلت الأميرة تنهدة خفيفة وقالت في صوت

الهامس:

- شاب رقيق الحال، مرهف الشعور!
- وما مهنته؟
- ليست له مهنة، كان يقضي أيامه يجوب البساتين،
ويتنزه على ضفاف الانهار، يستمتع بمحاسن الطبيعة!
- أنها حياة أقرب إلى التبطل والصعلكة. . .
- فتمتت الأميرة بلهجة الحال، وهي تستقبل بعينيها
كتائب الظلام المكسد بعضها فوق بعض:
- قد يكون ذلك، ولكنه الوحيد الذي استطاع أن يصهر
كبرياءها، ويحطم تاج غرورها!
- فندت عن الأمير صرخة:
- هو؟! . . أممكن ذلك؟
- أجل لقد أحبته الفتاة، أحببت فيه ذلك الشاعر المرهف
الحس، ينشدها أعذب ألحانه وأرقها!
- أكان شاعراً ينظم لها القصائد، وينشدها إياها؟
- كان ينظم قصائده بلا كلام، وينشدها إياها من
مزماره الرخيم! . . .
- فأصابت الأمير هزة شديدة، وقال في صوت جياش:
- وهل تقابلا؟
- كلا، فهي لم تره، بل أغرمت به على البعد! . . .
- ولا تدري أراها، أم لا؟!!
- لا ريب في أنه رآها. . .

- ليس ذلك مؤكداً، فعيون هذا الشاعر الجوال، كانت أقصر من أن تخترق خمائل البستان أو جدران القصر، لتكشف عن الفتاة وتلتقي بعيونها!

- يا للفتى البائس! . . . لو علم أنها تضرر له هذا الحب لطار إليها، وارتى تحت قدميها يلثمها في عبادة. . .

- من يدري أيها الأمير؟ . . . أنه فتى غريب الأطوار، يعيش وفق هواه. . . قد يرفض حبها لو تقدمت به إليه!!

- محال!

- ولكنه لو كان يعلم كم أحبته هذه الفتاة، وكيف أنه ترضى أن تعيش معه تقاسمه حياته الطليقة في دنياه الرحبة الوضاعة لقبل منها هذا الحب!

وتمتم الأمير بكلمات متقطعة، وقد شد بيده على حاجز الشرفة حتى كادت أصابعه تدمى، وتابعت الأميرة حديثها:

- لقد برمت الفتاة بحياة الثروة والجاه التي تحياها، وتوضحت أمامها بشاعتها، وأحسست ثقلها المرهق يحبس أنفاسها. فرغبت أن تفر من بيتها، تستبدل الكوخ الساذج الهادي بالقصر المنيف الصاخب، والرداء الخفيف المزين بالأزهار بالثوب الثمين اللامع بأوصال اللآلئ. . . لقد برمت بكل شيء يحوطها، واشتدت بها الرغبة أن تهرب، فتلحق بشاعرها تقضي حياتها في حمى مزماره!!

- ولكنها لم تفعل!

- لقد كادت. . . ولكن الفتى اختفى فجأة!

- أهرب؟

- إن الناس يرجفون بموته، فقد تكون التماسيح أكلته.
.. ومن ثم أسدلت الفتاة على حياتها سترأ غليظاً يحجبها عن
العالم أجمع!

- قد تسلوه يوماً، فترضى الزواج بأمر كبير!

- إن القصة تحدثنا أن الفتاة قضت في عزلتها عامين،
وهي لم تتغير. . . إنها لا تطلب الأمير، ولن تطلبه، بل ستحيا
مترقبة شاعرها الفقير كما هو بردائه الساذج، وقلبه الكبير. . .
لن تستبدل به أحداً مهما يعظم قدره ويتسع ماله!

- وهنا تنتهي القصة. . . أليس كذلك!

- تكاد تنتهي، والبقية في كلمتين، أتريد أن أتمها لك؟
فقال الأمير، وهو يضغط كلماته في حسرة مكتومة:

- إذا رغبت، أتممتها أنا لك!

فتمايلت الأميرة، وعرضت على وجهها ابتسامة،
وقالت:

- كيف؟ أو تعرفها؟

فقال في شيء من السهوم:

- إن حذقك في رواية القصة، قد جعلني أحزر
خاتمها!

وراح الأمير يحد بصره في نجوم الليل البعيدة، كأنه
يريد أن يستلهم منها كلمة نصح أو هداية. . . ولكن لم تطل
وقفته على هذه الصورة، فانحنى أمام الأميرة، وقال:

- لن أنسى ما حييت حسن احتفائك بي!

وقبل يدها قبلة طويلة عميقة، ثم ترك المكان لا يلوي
على شيء. . .

واستقل على الفور عجلته الحربية، واستأذن رفاقه!
وانطلقت به العربية، هائمة في أديم الصحراء، تشق
أمامها سبجف الظلام شقاً!

مشت

المحتويات

3	الشيخ عفا الله
15	الرجل صاحب الكلب
27	الباب المقفل
31	في الطريق إلى قرطبة
37	في ظلمة الليل

ذهبت إليه، وسألته أن يعطيها الكتاب الذي وعدها به فوقف
هنيهة يفكر: أين وضعه؟ . . . ثم تمت:

لعله في حجرة البيان!

وتقدمها إلى الحجرة، فدخلها. إلا أنها تنبهت إلى شأن غير
عادي بدرمته. لقد أقفل الباب بالفتاح! . . . فتسارعت دقات
قلبها، واختلست إليه النظر، فوجدته قد اتجه إلى الخزانة،
واندفع يقلب محتوياتها. . .

كيف اجترأ أن يقفل الباب بالفتاح وهي معه؟ من يظنها؟ ورمته
بنظرة حادة. . .

وأبصرت خصلة من شعره الذهبي قد تهدلت على جبهته. . . يا
لله! لم تره على هذه الفتنة قبل الآن. . . قامه مبسوطة، ومنكبان
عريضان، ووجه صبيح عليه طابع الرجولة الحق!

لم تره قبل في هذه الفتنة، على أنها نشأت وإياه في منزل واحد،
وكان يكبرها بعشر سنين، فهو ينظر دائماً إليها نظرات الأخ
الكبير إلى أخته الصغرى. . .

ووقع بصرها على خيالها في المرأة، فتذكرت معابثه إياها إذ كان
يلقبها أحياناً بالضفدع، لقصر قامتها!
ورفعت عينها إليه ثانية

ها قد حبسها معه في حجرة واحدة، هذا الفتى المبسوط القامة،
العريض المنكبين. . .!